سحبٌ خرساء

سـحـبٌ خـرسـاء

محمد عبيد الله



إلى
ميم عين

ما لا يعجبك
هالك
بمشيئة أحلامك

من فقد ذات مرة
ما فقدته أنت
فإنه
لن يعرف الطمأنينة أبدا

نيتشه

قطعان التيّه

كان صبياً منذوراً للبنّ كنارٍ مسّتها
أيدي البلوط العالي، محض صبيٍ لا
يدلفُ للمرح كثيراً، يحتدّ إذا اقتادته
العثرةُ في الدرب إلى الأتراب المسنودينَ
بما شاءَ الوقتُ من السهوِ أوانَ
اللهوِ، فكان ينقّل جغرافيا المرعى
عنهم، لكن العثرة بوقٌ لا
يخرسُ في أقواس التعب المستوطنِ
أظلاف الماشيةِ
وأبدان الرعيان

وحيداً
يحلجُ من مَيْتِ العشبِ عصافيرَ
يطيّرها نحو الغيبِ، وينكبُّ
على الكتب المذعورة من
أشداق الماعزِ،
والمنهكةِ من التدّليس
يقول: ستأخذني كتبي للغيبِ
وللأكوان الغامضةِ
بعيداً عن قطعان التّيه الهالكةِ

من الجوعِ،
ستأخذني كتبي لمجاميع الدهشةِ
إذ تَسردها سحبٌ خرساءُ،
وغيماتٌ غامضةٌ ترعاها الجنّيةُ؛
.. حين تلمّ الغيمات من المرعى لا
تتوقّف عندي وتقول
سلاماً... خذني...
لكنّي
سأغافلها إذ أكبرُ
راضيةً سأقبّلها
ثمّ أرشّ على سندسها الغافي
من كبريتي
فتغنّي لبهائي المغموسِ
بطلَّسمِ الجنّ
سأعود إلى أمّي بحقائبَ وهدايا
والدّنيا آمرها
أن تتقفّى خطواتي،
أغسلها كأواني القروييَنَ
وأسْلمُها لامعةً للباحِة كالقطّة،
أوصيها أن لا تتشاجرَ مع أمي
أو تنبو عن (أفٍ) حين الضجرُ
يرفرف قبّرةً في أيدي الصبيانِ

أوانَ العطلةِ
أو حينَ تذاكرُ أمي
درسَ الأيام الهاربةِ حصاناً
مغدوراً
يرغبُ أولاد "البشَوات" به
كي يسبق في ميدان التمويه

عدتُ
وطالعني
قرنُ
الكبشِ
بسقفِ
البيتِ
مدلّى
يحفظُ
هيأته
وأنا لاشيء معي
هرماً.. يثقلني وجعُ القرنْ.

مدار الخيبة

الضّليلُ أنا واليتيمُ
لم يكن ليَ الأمسُ
كانتِ الأحلامُ لي
في سبات اللّيل
أو في معاش النهارِ
نبتت منذ شموس القرى
وما أنجزت ميعادها
عندما عبرتُ بيلسانها
فأربكني الضبابُ
أينها الأسرارُ؟
كانت هناك في يسار جثّتي
في يسار الصنوبر والضوءِ
أسألُ: أينها الأسرارُ؟
فلطالما زمّت شفتيها
وما نبسَتْ إلا بالرّموز
قبل أن تروّي دمي بالبريق
الذي جهلته طريقي
وَما عَلا غرفتي يوماً، ولا ضوّا كتابي
أسأل أنا الضّليلُ
الذي نسيت في يديه المراثي مناديَلها
أسأل عن غرفةٍ مرجحتها الرياحُ

عن سبيلٍ مورقٍ
لابن السبيل

هل سبّلت فيه الحكايةُ وعدَها
وأنا اخاتلُ في الحضور وفي الشهادةِ
يا كتابي ها هي اليمنى
بلا ذنبٍ
تمدّ إليك
غير صحائفي الحبلى التي صدقت
وما صدقت سيوف القوم
أو حبلت سوى بالوهم
كم مئة ستأتي
كي أعيدَ إلى الصحارى قيسها
وإلى المدينةِ وجهها المغبّر
كم مئةِ سأنتظر القيامةَ
كي يقوم القوم للتّابو القديم
وللغزالةِ ترتقي كالشمس
لا دمُها يُطَلُّ
ولا الطلول ترثّ
أو تتثلّم الأيّام
والأخبار تنجبُ قصّة الغيلانِ
والأسف المرمّز بالأضاحي
يا صباحي

كم حمّلتك الشّمسُ من أحلام يقظتها
ومن أحزان نَبْوَتها
وكم خانتك في أنواءِ بهجتها
وأنت تفتّشُ الأطلالَ عن بُقْيا الصّبوحِ
وترتعي سفحَ الغوايةِ.
يا صباحي
صاحبي لم يرثِني
حين الظّعائنُ موّتتني
وأنا رثيتُ الراحلينَ
تبعتُ شَمْسَهُمُ العنيدةَ
عند مفترق النّوى
يا صاحبي إنّي صبوتُ
وقد تمُّر على الفتى
ذكرى الصّبوحِ فيصبو
كالسَّيفِ يلمع بالضّياء وينبو

أعود للضّليل
ابن السّبيلِ والشوارع المدمّاةِ
يجمّع أحلامَه
ينقّيها من الزّؤانِ
لكنّها لا تنبتُ إلا شجراً خائباً
وقصائدَ حمقاءَ

نحو البورِ غادرت إيقاعها
أفلتت منه وأفلتها في مدار الخيبة

أيّها الضّليل
لك هيأت الطرقات
وأنت تهرب منّي
تتركني لمشانق الكلمات
لن ترشد في الغدِ
مثلما لم ترشد أمسِ
هل سيبكيك صاحبٌ في الطّريق
هل سيبكيك بيتٌ حميم
لم يكن لك أمسٌ
لم يكن لي أمسٌ راحِلٌ أو مقيم
الضّليلُ أنا
واليتيمُ

تعبِتُ من الطّيران

دائماً في اغترابي النبيلِ
السّماءُ البعيدةُ أفقي
البحارُ ترانيمُ روحي
أنا النورسُ المستباحُ
الرياحُ
تهبُّ
أطيرُ
بلا وطنٍ أو رفيقٍ
وأحلمُ... أحلمُ
لكنّ دفتر عمري يذكّرني
بغيومٍ
تشهّيتُ لو أنّها عانقتني
ومضت للبعيد البعيد
إلى آخر الأرض وحدي أطيرُ
وأعلو
كأنّي تعبتُ
كانّ جناحيَّ قد هرما
هل أكتفي
وأقول لروحي
كفى غربةً وحنيناً
تعبتُ من الحلمِ
ما أبعدَ الحلمَ عنيَ

ما أبعدَ البيتَ
بيتي المضاءُ بما شاء قلبي من الوهمِ
لا بيت لي
فالنوارسُ دوماً بدون بيوت
تهيّئُ للكائناتِ مشاهدَ بيضاءَ
ثم تموت
يا إلهي
الصباحُ بعيدٌ
فكيفَ إيابي
إلى موطنٍ يترفّقُ بي
إلى شاطئ لا يخون
السّماء البعيدة تنأى
الرياحُ تلاحقني
وكأن الرحيلَ كتابي
كأن الرحيلَ تميمةُ أمّي لروحي
أذكرُ ما كانَ
أخشى الذي سيكونُ
وأغبطُ كلّ الطيورِ عدايَ
تعودُ إلى بيتها
أنا لا أعود
تعانقُ أبناءها كلّ يومٍ
أنا لا أعانقُ غير شبابيكَ مطفأةٍ

أو تصاويرَ للراحلين
بماذا حلمتُ
لكي يهربَ الحلمُ منّي
أردتُ فضاءً مضاءً
أردتُ مصاحفَ طاهرةً
لا تمسّ طهارتها
غير روحي
أنا النورس الطفلُ
وحدي بكيتُ
وقلتُ لقلبيَ
ليسَ أوانْكَ هذا
فكفّ عن الحلم والنبضِ
لكنّه ما استجاب
فكمْ حقبةً يا إلهي
أطيرُ
وكم ليلةً سوف أحلمُ من بعد
حتى أعانقَ وجهاً حلمتُ به ألف عام
تمنيتُ- لومرّةً- في الطريق يفاجئني ويغيبُ
فكيفَ أظلُّ وحيداً
وهذا الفؤاد النبيّ لمن سوف أعطيه
من يأخذ العمر والسنوات
وأمنحه وردة الأنبياءِ

تعبتُ من الطيران
كأني هرمتُ
كاني تركتُ الرياح
تركت العواصفَ باكيةً
وتركتُ السنين
تكفكفُ أحزانها
وتودّعُ عند المساء
آخر الشعراء..
ما الذي ظلّ لي؟
حلمي بكتابٍ أؤبّن موتاي فيه
وآخر أكتبُ فيه الكواكبَ والناس
أكتبُ قيساً وليلى وكل المحبّينَ
أكتبُ قلبي إماماً لهم
وأموتُ
شهيداً طريدا
....
وأسمعُ من ظلمة القبر همهمةً وانتحاباً
يا محمّدُ:
متّ انتظاراً... ومتّ نبياً وحيداً
سلاماً على روحه... وسلاماً عليّ
فقد كان... كنتُ وحيداً وحيداً وحيداً تماما

موتی طیّبون

آنَ يأتلفُ النملُ
سأبيحُ ميراثي لهُ
وآمرهُ أن يدخلَ رئةَ الارضِ
إذا عبر الجندُ ترائبها التي لَم تصقل بعدُ
والرياحُ السخيّةُ بعذاب المحبّ
أتركها تذرو كبدي
ولا أقولُ:
واااا هيفاءُ التي صادرت شجري
وزهوي بالقروي الذي كان يسكنني
....
صرتُ أقلعُ نيشان خيبتي
وأزرعُ شرياني بيديّ هاتين
أحنو عليه كأبٍ هرمٍ
أوقظه بغنائي كي يصحو
لأوثقَ حيرة أشتاتي
أو في القليل أوزّعُ دحنوني
على من أحبّ
وأشتم كميةً أقلّ من البغضاء
فيتسنّى لي أن أعري مدني
في الريح
وأكشف عن الغرباء الذين تخبئهم
في فساتينَ نسجتها من تعبي وكتّاني

أضحكُ من سذاجة أفكاري
في البردِ
لا مطري يجيءُ
ولا غيمي ينجبُ طلا
بل تنقله الريحُ كيفما شاءت
للبعيد الذي ليس شرفتي
أو جسدي
ألتقي (عبيد الغيم) في غرفة النّحْسِ
أو في الشارعِ
كم يشبهني ذلك الأبلهُ
أدعوه ليدخل مملكتي
عاشقاً أو شقياً
أزجره كي يغلقَ مأتمه
وينمو أرجوحةً للنبوّةِ
لا شجراً مغلّفاً بالشّمعِ
هيّا...
هنا بعضُ يابسةٍ
حتى لا يكتمل الغرقُ
لكنَّهُ
يبكي هدايا لم تصله
وعاشقةً لم تكن تلبسه في البردِ
وأفراحاً لم يشاهد ذاك الصنوبرـ

أبعدَ من أحلامها
أعنّي عليه إلهي
على العذريّ أعنّي
فهو دوماً يستعيدُ سهوباً
قافيتها الوجدُ
ومواعيدَ طالما لسعتها الأعذارُ
لكنَّه الوعدُ
لا ينشفُ، لا يرشفُ إلاّ كبدي
وأنا لا أسألُ
ماذا أكتبُ، أو ماذا كتبتُ؟
فرحاً مرسَلاً دون وزنٍ
أم مراثيَ مشغولةً برنين التّراب
هل أدفعُ عن بابي
موتى طيّبين
أم أقيم احتفالي يتيماً قربَ أمّي
وأقول:
وااا هيفاء التي صارت زهري
وزهوي
بالقروي الذي ظل يسكنني

شياطين
القصيدة

لي أحلامٌ وخطايا كثيرة
ابتدأتُ الرسمَ صغيراً
ديواناً من الشعر رسمتُ
وامرأةً من الحنطةِ
أعجنُ طينتها بيديّ
أعلّمها الأسماءَ
أضيفُ إلى عينيها
الرغبةَ في الحلمِ
ثمّ أدخلها غرفة الروح
أعرّيها تماماً
وأكسوها اشتعالي
وكلّما التبست كفّاي بكفّيها
تهجّت حنيني
وإذا محاني جنوني
تمدّ رعشتها إليّ
لنغدو كوكبين بلا ثالثٍ
لا يروغاِنِ
إن انشقّت السماء عليهما
أو مرّت شياطين القصيدة
هكذا كنتُ أرسمُ

لم أكن مغتربا بما يكفي
لأخنقَ أوهامَ صباي
ولم أخرج على الذكريات
شاهراً شجري
وطواحين يديّ
لم أفارقْ دأبي
ولا ابتعدتُ عن العشّاقِ
أرقبهم
مبكّراً يذهبون إلى مواعيدهم
وحين ترتشف العاشقات قلوبهم مع القهوةِ
أشتكي من قلّة المرارة في قهوتي
أودع أسراري
إلى درج المقهى،
وأذهب باتجاه ظلام بكى
واسودّت عيونه
أيتها العتمة
أيتها البصيرةُ
أسعفيني بالكلمات
لأتمّ ميقاتي
بما اخترتُ من ناراتٍ
لا يلزمها الحبرُ
لتنصب سلّمها في حنجرة الرياح

ولا تهتزُّ، فيسّاقط منها الضوءُ
إلاّ
إذا رقّص العشّاقُ أفئدةً أسرجوها
ومرّوا كهواتف جنَّ تأمر الضوّء وتنهى
الظلمات...
هكذا من أولّ دهري
عبرتُ إلى الكتابة والمقاهي
من جسر مكسورٍ
هو قلبُ فتى
لم أكن أعرفه جيّداً
وما تحالفتُ مع الكلمات
إلا لتدلني على مفاتيحه
فأتّقي شرّه
كي لا يظل براري عاريةً
هكذا
دمه حبرهُ
وحبرهُ مفتاحُه
يكتبُ ما تخبرهُ النجوم:
ستحظى بكفّين مورقتين
وخميسٍ للمواعيد وأوراقٍ بيضاء
ستحظى بدرب التّبانة كاملاً،
فكّر: ماذا لو لظمته عقداً

لمن أحبّ
إذا ما أتقنت أحكام تلاوتي
ماذا لو نثرته في عرس الشرايين
ماذا لو...

ليتَ برج العذراء لم يكن كاذباً
ليت النجوم لم تتعلم الكذبَ الاسودَ
إذن لظلّ معي صاحبي
أقابله في حضور الماء
أو الريح
التي لم يغتنمها أبداً
أهوَ أنتَ؟
كيف أحببتها؟
ولماذا يظل الجنون بيدرك الوحيد؟
لماذا يبطئ الغيمُ
والماءُ عيناك

هكذا يحلمُ بيومٍ
بريء من الخيانات
وصباح يطهّره بيديه
فلا يطوف خيالٌ
ولا يتكاثر نحل التذكّر

في دفاتر عشاقٍ تأخروا عن دروسهم
يتعبه الشعرُ
وهو يرحلُ من غرفة إلى أخرى
ومن درجٍ إلى آخر
يبحثُ عن نجومٍ
نثرها يوماً
ورسائل أثقلها الإطناب
ظل في التطواف
ينتظرُ قصيدةً
لا تولدُ في الصيفِ
ولا ترتجفُ من البردِ
ظل يرقبُ الحبرَ
يمشي بين دمه ووجنة الطاولة
ويرى بخار السنين
وهي تذبلُ
بلا برجٍ
ولا حبٍّ
ولا عائلة

سورة
الزلزلة

الرنين الذي بُحّ صوته
يثمر فئراناً وخفافيشَ عمياء
رأيتها تداري خبثها
وتدحرج الطباشير على سبورةٍ
هي روحي
مقفلة بتلاميذَ لا أعدّهم آخر النهار
فيتسربون مثل الغبار
ولا أجدني إلا بعد إعلان
... خرج ولم...
خطٌأ قال ابن جنّي
ولكني
لن أعود يا صاحبي إلا
بعد أن أفقأ عين الضريح
وافتحَ ممالك الغيب،
حتى تأخذَ أجنحتي النيازكُ
فأصير منها
وأقول: إني رأيت ممالك لا تعجبني
وما لا يعجبني هالك بمشيئة أحلامي
يصطفق الباب فأصحو على الريح
تعبر من روحي إليّ

أرى الكلمات تسقط على قفاها
سخرية مني
فأعود إلى باحة بيتي
وأقرأ أقداراً
مخطوطة في دفاتر الحصباء

(بيتي واسع، يسع الناس أجمعين،
سيارة الشرطة، والنفايات، والعمال،
والإسعاف، وكل القبائل، إلاّ خطاي
حين أحاول تهريبها سراً
إلى حيث مقاثي السبيل
بلا فزاعاتٍ
أو سياج حجري،
حيث العصافير تغني دون خوفٍ)

أصيح بملء خيبتي
كلّ ما لي صار للعراء
وأنا للكهولةِ
آن يتكسّر النهار في قرنبيط السحب
وآن تخمش الديكةُ
جيب الصّباح
الماء يغتاظ مني

وأعمدة الريح تغتاظ
والكون يغتاظ
من قصيدةٍ لا تتقوّسُ إلاّ
بين يدي خالقها
ينهمل الماءُ
هل لي بدعاء المسافر؟
الكائنات لا تبالي باختناقي
ها أنا وحدي
خزف يتمرأى فيه اليتامى
ومرآب للعويل
وحدي منقادٌ إلى زلزلةٍ
مسقوفة بالمصابيح التي
ما لها عين عليّ
ولها ألف عينٍ على من علّقوا الطعنات
وحدي أرى كلّ شيء،
مدناً تهوي
وزلازلَ تتقيأ
لا ينجو سوى نساءٍ
ذهبن إلى أحضان عشاقهنّ
وزلزلن قرابين من ربحوا ميراثهنّ
وحده ينجو
وحده لا ينجو

ما أجمل أن يقف على كرة الغباوات
ما أحمق أن لا يركلها بقدمٍ باكية
ثم يقفز نحو هيولى
يخالطها مثل بخار مخبول
ها أنتَ
تفك الذئْبَ من عقدته
وتهوي نحو السماء
بعد أن توثق الأرض من ذيلها
إلى وتدٍ مريض
ها أنتَ
تشير إلى جهة في تضاريس الخواء
فأضمّك إلي ساخناً
مثل طفل مصفَرّ
وأكتبُ في سجلاّت النوايا
أنك حارس الكوثر السّماوي
ورفيق الشهداء المطمئنّين
ها أنت
تفلتُ منّي صائحاً
الأفاعي
الخراب
الأرانب
فيجيب الفقدُ نائحاً

أن الانتباه قربان مضى للذبح توّاً
وأن الفراغ مملوءٌ
بما لا يناسبه
أينما خبأتني
فسوف أقاضيك
عند الطبول
حين تهزّها الحربُ
وعند حلمة التّصدعِ
حين تشتهيها العواصف

سوف
أقاضيك
في داخلي

في داخلي
سوف
أقاضيك

نيران

(1)

نارٌ
تترجّل من النافذة
كأنما لا تنوي
أن أشيعَ جثّتها قريباً
ستجدُ كثيراً مما تأكله
قصائد معتقلة
صوراً
تتخاصرُ في الذاكرة
شوارع
وأصدقاء عصاة
لن تأكل النار بعضها إذن
فكلّما ألقيتُ فيها
حزمة ذكريات
قالت: كفى
لا أريد المزيد

(2)

كل ليلةٍ
بعد حين من الدوار
تغفو الكرةُ الأرضية
وتطرقُ بابي النار
قلبي أسنده
إلى براق الحكمة
وأوصيه
أن يحسنَ التجوال
آناء انهيار الأجنحة
وأطراف النهار
لكنني حين أصحو
أجدك تهشمين أضلاعي
كي تشبّي نارك
وتحرقي قلنسوةً
كنتُ نسجتها في السماء الثامنة
أكتشف حينها
أنّ قلبي تلميذ ثرثار
لم يستمع إليّ
وأنا أعلّمه ما لا أعلم

فهو يريد
أن يرمشَ منتشياً
بلذة الصلاة
التي حتماً
سترتدّ إليه في ثوب مخمور
إنه يخشى
أن ألقي بنبضه إلى التهلكة
بعد أن أوديتُ به
في حفرة الانهدام

(3)

في القرية
التي حباها الله
كثيراً من ملامح جهنّم
يوقن الناس
(مؤمنين وعصاة)
أنهم سيدلفون رأساً إلى الجنة
ولذا فهم يفكّرون الآن
كيف سيغيرون جلودهم
ويقيمون

في ظلالٍ ونعيم
دون ماعزٍ
وترابٍ
تجري
من
تحته
النيران

أسئلة

سؤال الشجرة

ما جدوى أن أتشاجرَ
مع ذاك الغيم
وأنا أخضرُّ
لأجل الناس
فيهدونَ عظامي للفاس

سؤال القصيدة

واقفةً
عند البابِ
وخائفةً
تسألُ:
من يصلحُ أوتارَ الشاعرِ
كي أدخل

سؤال الحافلة

لِمَ لمْ تتوقّف حافلةُ الرّكاب؟
....
هل لمحَ السائق كفّي
تقطرُ منها الخيبة

سؤال الأصدقاء

ما رثاني الأصدقاءُ
حين متّ
بل ورثوا مليكتي
وعبثوا بميراثي
لكني حين أغافلُ العازف
سأقتله
وأقتلهم جميعاً
ثم أعود إلى مليكتي
أعلّق المزمار في عنقها
يا خيبتي،
لقد نفخت فيه، فعادوا ليقتلوني

سؤال الأنبياء

سألت كثيراً
عن الأنبياء
لأني حلمتُ بما يحلمونَ
كتبتُ كلاماً كثيراً عن الحبَّ
أعطيتُ أعطيتُ غيماً، لتحنو عليه السهولُ
وتنبتُ من رحمها ما اشتهاه المحبّون
ثمّ تقولُ:
النبيُّ الجديد كساني
كساني النبيّ الجديدُ الجميلُ
كتبتُ...
وأعطيتُ...
راهنتُ أن الشَّجرْ
سيمدّ لروحي بسَاطاً أليفاً
وأن القَمرْ
سيأمر كل الطيور الغريبةِ
كي تنتشي بقدومي
تعلّمني منطقا للملائك
أعلو به لغيومي
ولكنّها الريح
تمحو ولا تمحّي

أخذت كل شيء
فبكيتْ
في المرايا الجريحةِ
شاهدتُ من خلل الدّمعِ
وجهَ صبيَّ
تعثّر عند الثلاثينَ
شاهدتُ
كفَّينِ لم تعهدا أن تبوحا سوى للمداد
ولم تجهرا مّرةً باليقينْ
في المرايا الجريحة
شاهدت من يشبه الوحيَ
أو يشبه الشنفرى
لم يخلّف لروحي ابتسامته
بل رماني إلى جثةِ الأرضِ
أو كومة الأسئلة

نافذتي
النسيان
وقوسي
ذاكرتي

يومياَ
أتفقّد أضلاعي
أعبر ساقية الحزنِ
أقولُ: أرتّب أرصفتي المغبرّة
أستسقي الودَّ
وأيتامي حولي
ما أطول طابورَ النّدْبِ
وما أبخلَ حانوت الغيمْ
ملّ الأيتامُ
مللتُ
ووعدي للأشجار وللأطفالِ
اختنقت رئتاهُ
ولم يتنفّس فيه الصبحُ
الليلُ يعسعسُ فيهِ
أطمئنُ أيتامي
سأكون هناك

مساء اليوم... غداً
سأكون هناك
أطمئن أيتامي
سأكون قريباً من روح البابونجِ
أغسلُ عن وجه الصبحِ
نعاس الصبحِ
وأشعلُ في الأغنية الخرساءِ
بروقاً ملساء
وتوقيعاتٍ خضراء
أحلمُ
وأضيء الحلمَ
بفانوس الحلم
إلى أين الرحلةُ؟
أسألُ شارعَ حزني
أسأل أنقاباً ضيّقةً
سجّلها رمل الصحراء بروحي
أسأل قلباً
ضيّعَ عِقْدَ الضّوء
وأظلمَ في عِقْد البهجةِ
يا من هجّرتَ سنينَ الفوضى
يا من أبّنتَ مئين الموتى
دبّ الصّوت

على مخلوقاتٍ
تعبت فيها كريات الهمّ
لكن القلب يميلُ إلى ساقية الدّم
يشاركها الغَمّ
يفتش عن جدوى
للدوران المغتمّ
أناديه:
أما تأتمَّ
بمن ذهبوا
لمخاتلةِ الحلمِ
أما تصحو؟
ها أيتامك في طابور النّدبِ
ولا سقيا للأيتام وللشعراءِ
وهذي الصحراء ترائي
هذي الصحراء الحرباء ترائي
الموت تسّرب في كل الأنحاءِ
الأصداءُ خيانات ساطعة
والآثام سَرابٌ
وإماءٌ لم تملكها الأيمانْ
أحببتكُ يا آثامي
أحببتُ إمائي
فعُبيد الغيم يجبُّ إماء الغيمِ

يقولُ:
أحبّ النارَ لتشعلَ روحي
بالحب والموسيقى
عذبٌ حلمي وغريبٌ
لكن النيرانَ جرت من تحت قراي
سنيناً وسنيناً
والمدن المقرورةُ
جار عليها البردُ
ففيمَ سأرغبُ أو أبغضُ؟
قال أبي:
اغضض من صوتك
قال السلطان:
سيصطادُ العسس لسانكَ
قلتُ:
توكأت على الحلمِ
سأكتب آخر أشواقي
لجنان النارِ
لأغواري
للبحر الميّتِ
للشمس تذوب على شفة الأقصى
خجلاً من أيتامي
أكتبُ أشواقي

لمشاهدَ
غارَ صنوبرها في الروحِ
وغابت
خائبةً أو نادمةً
كالقوسِ المجنونةِ تنكرُ عند الغفوةِ
باريها الأوّل
ماذا أتذكّر
نافلتي النسيانُ
وفرضي ذاكرتي
ماذا أنسى؟
وأنا لم أغمُرْ خمري بالخبزِ
ولم أرمِ أغانيَ سكرى
في باحة بيتي
....
نافذتي النسيانُ
وقوسي ذاكرتي

سلال البَرَد

وجهه فسحةٌ من نَوى
مقفِرٌ غيرَ أنّ المساء ارتداهُ
فراحَ يقيمُ صلاة النّزيفِ
يودّعُ قُبّرةً دونما أهبةٍ بطقوس الوداع
يقولُ تعودُ
إذا جاء أيلولُ
أو مزّقت طعنة الريح أعشاشها
ادّعى أنّه شافها
ذات حلمٍ تبوحُ لُه، ثم تبكي
فراحَ يقبّلّها
أسكنها صوته.. ثم خبّأها
لكي لا تُرى
أو تتبخّرَ كالحلمِ
لكنّه إذ صَحا لم يجدها
ففتّش جفنيه.. فتّشَ أحضانه
لم يجدها
بكى، ثم غسّل عينيه بالدّمعِ
إذ كذّبوهُ

مضى... واختفى في ثنايا الجنوب
وغابَ طويلاً طويلا
فقيلَ: تجلّى الإله لَهُ
-صدفة- في المساء
ربّما ربّما صارَ آخر غصنٍ من الأنبياء
ربّما مرَّ في الطور
لاقتهُ هيفاءُ
خاف القبائلَ أن تستبي لحظَها
فانتحى جانباً
ادّعت نجمة أنه في الرّقيمِ
يسطّر ألواحه
وادّعت طفلةٌ
أنه خلسةً ضمّها
وأباح لها السرّ
لكنّها نسيتهُ
ستذكرهُ حين تكبرُ
أو أنه سيعودُ
ويأتي لها بسلال البَرَدْ
صدّقتها النجوم القصيّةُ
لكنّهم كذّبوها
سألوها
مرةً واثنتين ثلاثاً

ولكنّها
لم تَردّ

راجعٌ للقصيدة

راجعٌ للقصيدَةْ
كنتُ فارقتها سنواتٍ
وعاندتها
كلّما أيقظتني تناومتُ
قلتُ: الفتى غائبٌ
فاذهبي
للريّاح التي
ضيّعت منه أوراقه وبريدهْ
راجعٌ
في يدي وردةٌ للوفاءِ
معي صاحبايَ
امرؤ القيس أولهم في الضلالِ
وثانيهمُ القلبُ حين يضجّ به الحبُّ
ما أنبلَ القلبَ حين يحبُّ
وحين تغني له الطيرُ
تعلي به زهوها
وتباهي
النجومَ البعيدةْ
راجعٌ للقصيدة
عن يديّ وقلبيَ أسالُها
عن بيوتٍ من الطّين
رَقّشتُها في الطّفولةِ

أذكرُ
من عشبِ روحي
عجنتُ النوافذَ
ثمّ رسمتُ الحديقةْ
تجلسينَ على مقعدٍ خشبيًّ
قُبالةَ عينيك أهمسُ
إني أحبّكِ
عيناك مغمضتانِ
ألا تشربين ملامح وجهيَ
في البوحِ
هاتي يديكِ
لأعرفَ أنّك قربي
وأنك فيَّ
وأنّ الذي خلِتهُ الوهمَ
وجهُ الحقيقة
راجعٌ
ومعي القلبُ
نبحثُ عن بيتنا... طيننا
عن مقعدٍ
وحديقة
راجعٌ للقصيدة
سوفَ تسألني:

كيف عانَدْتَني سنواتٍ
وفارَقْتَني
سأجيبُ:
بأني صبيٌّ كثيرٌ بأحزانِهِ
وقليلُ الخطايا
رأى كلّ شيءٍ
يميلُ إلى الموتِ
صاحَ به:
أيها الموتُ
كُفَّ...
فما كفَّ
غيرُ الصّبيِ
إلى الصمتِ مالَ
ومن يومِها
كفّ عن نشرِ أحزانِهِ
في الجريدَةْ

يا لهُ من شتاء مزوّر

أطرقُ بالُ العشبِ بأسئلتي
تذكرني؟؟
بعد نفاد جناحيّ
تذكرُ كيف ارتبكَ غراب الشّك
وهو يُسِرُّ إليك الرغبة؟
يا عشبُ
أأنت الميّتُ
أم أني المكتظُّ بأطياف الموتِ
المكتظُّ بأحلامٍ ضاعت في أعرافٍ غامضةٍ
هل أنت الشاهدُ يا عشبُ على موتي
أم أني شاهدُ موتك؟
في كل الأحوالِ تعالَ
معاً
نصعدُ أدراك الزورِ
بطيئاً
كحمامٍ
دجَّنه سهواً
صيادُ الخيبة

منشياً بلذّة الطعنةِ
يا لَهُ من شتاءٍ مزّور
انتظرتهُ وكفّاي على يسار جثّتي

الطيورُ فزعت من إسرائي
خطفت أسراري وهي تقدحُ بالبرقِ
ثم رمت كل شيءٍ
من النافذة المغدورة

والتي من رحيق الطفولةِ ماتت
غَفَتْ عنوةً في مدار الفجاءةِ
مربكةً بالوعود الصغيرةِ
والورقِ الكَهْل
نادت ذبول الخريف
وأسلمت الروحَ للَّعثمات
أتذكَّرُ كل التفاصيلِ
يا للخميس الغبيّ
فذاكَ أنا كاملاً

أنتظِرُ، أعدُّ الوقتَ عابراً عابراً
أقولُ تأتي الآن ويذهبُ
هجسي بالخراب
ستأتي مثلما دائماً، ترابٌ حنونٌ
ورقٌ بسيطٌ، جمهرةٌ من الأطفال..
الثواني تعرجُ من أصابعي،
ترتابُ في الشّمس، ولا تأتين..

لو أنّكِ تأتين الآن
نتخاصمُ لحظاتٍ:
-لمن الوردةُ؟
-لي
-لا للشجر المسكين
هاك الأشجار جميعاً
والورد جميعاً
لو تأتين
لو تنكسرين هنا في أحضاني
فأعودُ صبياً يتهجّى الحبَّ
ويستدعي الأحزان

أحوال المصلوب

أمي تركتني
ناديت النخلة والمحراب
ناديت النجم الثاقب
يا نجم أضئني
وأضئ روحي للأحباب
يا ااا أمي العذراء تعالي
ابنك مصلوب في برج العزلة
واللغة العجفاء تشد وثائقي
وبيان القوم الأعمى
لا يعتّد بتشبيهي
ويكنّي عنّي
بالغربان

الشمس المرصودة أخفت هالتها
ركضت في كل مكان
ورمت خطوات عاشقة
في قمصان الآفاق
لكن
ما زارت أسرة افلاكي

حين يعاندني الشوق
ويوقفني الشوك

أسبّل عينيّ على صور هائمة في البال
رنيني يعلو
أُمسي الموسيقى باكية
أولست يتميك؟
يفضحني الشوق
ويشعلني أوراقاً في الريح وفي الذكرى
فتعالي أمّي
كي أتعمّد في حضنك
أغطس في الحب الدافئِ
حين تداعبني كفاكِ
وأوقن أن الشوق رماني
ورماكِ

أتذكّر
أني أشعلت شهابي من عين الشمس
خطفت النار المسحورة
ضوّأت العتمة رغماً عن آلهة العتمة
لكن البشر الفرحين بناري
خذلوا أوتاري
ونسوني
حاولت أقول كلاماً عن أحوال القلب
وعن آلاف الحّياتِ

ستخرج من صندوق وردي
تحمله امرأة لا تشبه أمّي
البشر اللاهون أضاعوا صوتي
أنا من كنت تنبأت
ركبت العربات المتّقدة
قطّعت وريد الشمس
لأهدي للناس مفاتيح الغامض
أنا من كنت تنبأت
وسمّيت الورد بأسماء شتّى
قدسيّة ناري انطفأت
والماء الطاهر ذهبت حرمته
كيف أقول
وأحبابي غابوا
شدّوا لغتي بالنّسعة
خلّوني وحدي
لغة تتحشرج أصوات أنين في صدري
استحضر ما حفظت روحي
من أوراد وتعاويذ
أحاول فك الطلّسم
فأخفق
مثل العشّاق جميعا
تعبرني غيمات آيلة للقمح

الغيمة هذي تشبه كفّاها نهري
من هذي الغيمة؟
-أمي جاءت كي يخضّر الزرع بأضلاعي؟
-اسمي ليلى
وحبيبي الأول قيس المجنون
الصحراء الموتورة قتلته
وأشجار السدر أسرّت باسم حبيبي
كم تشبه قيساً
في الحبّ
وفي العينين
سبّح باسمي سراً
لا تذكرني أبداً
كي تبقى حياً لي
فعشّاقي إن ذكروني ماتوا
وإذا صمتوا
سمّوا الورد بأسماء شتى.

بدو رُحّل

هل نخلّف الحياة وراءَنا
تلهثُ قدّام أحلامنا
هل نسترقّها عنوةً
لترفعَ الصنوجَ لنا
تتمايلُ طربًا أو فزعًا
ينبجسُ الماءُ من عينيها
بكاءٌ معتمٌ
أم مطرٌ حالمٌ
جدولٌ دونَ قوافٍ
أم فصولٌ غادرت دورتها
سوف نواصل فطرتنا الأولى
بدو رحّل
ولكن أين راياتنا
لا حادياً للعيسِ
ولا حتى ربابةُ ضوء
رحلتنا ليست في الشتاء ولا في الصيفِ
رحلتنا للحياة الطروب
سوف نواصِلُ عاداتنا
حتى تقتلنا رئةُ الصحراءِ
أو تخضرّ تحت أقدامنا العاريات
ألم نحاول كلَّ ذلك
ألم نجرّب قناني الضوءِ

ألم نفرغها في أرواحنا
كم مرةٍ صارت شظايا
وحكايا للقيان المائسات
هل نخلفّ الحياة ملائ بعد هذا
هل نستميحها إذنا للعبور
حياةٌ كالرشوةِ
ملائ
ها غبارٌ
وغيوم كالشياطين
رمادٌ ومرايا
ها درجٌ هابطٌ لأبعدِ أرضٍ
هبطنا للأعالي
سوف تشتاقُ عشتارُ
هبطنا
ولكنّها استرقّتنا
وساقت خطونا للجحيم
عصيناها
قبضنا على الرمحِ
لنطعن أشراراً صفرَ الوجوه
ولكنّا بُهيْتنا
من نحنُ؟ من همْ؟
كلنا صفر الوجوه

كّلنا أشرارٌ في الجحيم

طعنّا مزق الأرواح
وألقينا بأحلامنا في السديم

صحراء..
صحراء

والرّبا
والمساءِ،
إذا مشّطت شجرات الصنوبر أحزانَها
ما الصبيّ اليتيمُ
سوى عاشقٍ
-مرغماً- غاب عن ألفة الوعدِ
لكنّه ما قلى
لملمت روحهُ حقلَها
حرثت ذكريات من الشَّعر والقمح
وانتبذت ما تراءى لها
من قناطرَ
فضيّةِ المنتهى
قال: يا قلبُ
هيّا
لنعبرَ
هذا المساءَ المبعثرَ
هيّا
تذكّرَ
كم كان ينطرُ أنهارها
لم يكن فارساً أو نبيّاً،
لم يكن شاعراً أو غويّاً
ولكنّه كان يمشي على الماء

ما أبحرت في بحر صحرائه
غيمةٌ
أو سفينةُ ضوضاء
لكنه ظل يمشي على الماء
ينطرُ
هيّأ قامته
واستدان من الريحِ صبوتَها، وصَباها
عاشقاً، كان
ولمّا يزل عاشقاً
نسجته الصحارى بأنوالها
فاستدار ليملأ كفّيه من آلها
رأى الآلَ ماءً
فهّيأ كفّيه
هّيأ عرجون أضلاعه
ودنا
فنأى الماء
صحراءُ
صحراءُ
يزهو بها البوم
يرقصُ في سكره كالمريدْ
إنها الصَحَراءُ إذن
هل تريدُ

حداءً يهدهدها
أم طلولاً تؤانسُ غزلانها
ما بكى، أو رأى الدربَ صاحُبه
لكنه اليومَ أيقنَ أن الرّبا وهَمه
أنّ هذي السماءَ الشحيحةَ
ترمي إليه ببارق من خلّبٍ
وترقّص في قلبه وهمَ أقمارها
استدار ليلقي التحيةَ
ما كان في الأفق
إلا كويكبةٌ أغوت الأنبياء
فصاروا هم الشعراءُ..
استعار حنين الغواية للشّعرِ
حتى يرقّمَ بالضوءِ وجه المساء
والسماءَ
يخلّفها وحَدها.. كاليتيمةِ
تشكو.. تحدّث أخبارها

توقيعات

(1)

كورس من الطير ينشِدُ
باسم الحبيب
وأنا أعطيها شارة الترداد

(2)

لو أن قلبك مثل قلبي
لرميتُ أجراس الكلام
وقلت للأشجار
هيّا ارقصي

لو أن صوتكِ
ينبتُ الغيمات في صحراء وقتي
لسموتُ أكثرَ من ملاك الحبْ

لو أن أيامي
تميلُ إلى البياض
لأستريح

لو أن عينيها معي
ما احترت

(3)

غربان غربان
خنقت شجري
ورمتني
في مقبرة الوحشة والصمتِ
بلا مطرٍ
أو شعرٍ
أو مرآة

(4)

ما دعتني بأسمائي الحسنى
وما ضمّت إليّ
ورودها البيضاء

(5)

-ما عندكَ؟
عندي أخبار العذريين
ولكن لا أملك قلبي

(6)

لم أنتبه
أن روحيَ شاخت
وأني أفتش عن خيبةٍ
في كتاب الأغاني

(7)

عرق الراقصين اهتزازاتهم
تخاتل صائدَها الموتُ
حين يدوّي
ارقصوا كالفرائِس
وانتفضوا كالضحايا

(8)

خذي كلماتي
فما وقّعت في فؤادي
سوى الشجن الأبديّ

(9)

في مهرجان عينيك رقص
وأنا
لا شيء يومض فيّ
سواهما

(10)

أيها الضوء أيها الضوء
ألا تسمع
بصري حديد
لكنه لا يطاوعني
يترك السّاعةَ تتكّ
كأنها تمازحني
في مشهد حبّ أو موت

(11)

ضجرت كثيراً
من فعولن وفاعلن
كأن درس الخليل لم يعد يكفي
كأن العمر على البحر الميّتِ
والعتمة
لم تسمعني ولو مرّة

(12)

الوردة بنتُ الماء
فدعيها
شاهد حبّ
يلعن
كل الساعات الحمقاء

(13)

أريد موسيقى خارج الموسيقى
منذ عينيك

وأنا أفكر في ميلاد جديد
وفي أنتظام غير مستقيم
منذ عينيك
وأنا أحاول السماءَ لو تمطِرُ
لو تبتسم
فينتشرُ الياسمين كالحجل المندهش
وتولد الموسيقى
خارج الموسيقى

الفهرست

- سلال البَرَد
- راجعٌ للقصيدة
- يا له من شتاءٍ مزوّر
- أحوال المصلوب
- بدو رُحّل
- صحراء.. صحراء
- توقيعات